الموقف الإسلامي من المنجز الحضاري المعاصر رؤية للعالم الشرعي السعودي عبدالعزيز الخلف

رحمه الله

أ. د. عبدالرحمن بن زيد الزنيدي
قسم الثقافة الإسلامية - كلية الشريعة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

من الأقوال المنسوبة للفيلسوف الألماني (هيجل) قوله: "من مشكلات الناس أنهم يعيدون مواقفهم التي ثبت فشلها".

وصدّقُ هذه الملاحظة لا تشهد له المواقف الفردية والجماعية المحدودة فحسب، وإنما تشهد له المواقف الحضارية أيضًا، وفي تاريخ أمتنا العربية القريب شواهدُ كثيرة لذلك، وخاصة أمام المستجدات الحضارية التي تلاحقت عليهم تباعًا تقنية، واجتماعية.

لقد شاء الله للمجتمع السعودي أن يكون إسلاميًا في عموم مفاصل حياته في هذا العصر - تحديدًا في القرن العشرين الميلادي - الذي كثر فيه التفلت من الدين، وظل هذا المجتمع ينشدُّ إلى الإسلام أكثر فأكثر مع الزمن، وخاصة أمام التحولات التي تقذف بمستجداتها عليه، فيلجأ إلى دينه لاستبصار الموقف السليم إزاءها.

ومن يرسم له تلك المواقف ليس هو الدين ذاته بنصوصه العامة، وإنما هو العالم الشرعي الذي يزن المستجدات بقواعد الشرع ونصوصه حسبما يفهمها.

المشكلة التي واجهت العلماء - ومن بعدهم المجتمع وجماهيره - أن هذه المستجدات في القرن العشرين المنصرم كانت من الجذرية، والضخامة بدرجة مربكة للفكر الذي كان بمعزل عن تطوراتها المنهجية، والموضوعية؛ وهو ما جعله يُصدم بنتائجها الكبيرة، ولا سيما أن مثل هذا العالم الشرعي تعاطى مع سقف معرفي موروث من قرونٍ ماضية تجاوزها زمن غيرنا، وبقي هذا السقف متوارثًا لدينا دون تجديدات تهز من قطعياته الاجتهادية، بل الأمر عكس ذلك، حيث أخذ قيمة شبه مطلقة بحيث أصبحت تلك الرؤى والتحليلات المستمدة من النتاج الفكري والمعطى الواقعي لعصورهم أحكامًا ثابتة محكومًا بها على كل فكرة جديدة.

لهذا لم يكن غريبًا حينما صار الغرب يتابع اكتشافاته في الجوانب التقنية التي لم يكن بد من التعاطي معها من قبل مجتمعنا في ذلك الوقت كالبرقية، والراديو، ثم التلفزيون، والسينما.. والجوانب الفكرية كدوران الأرض، وتجاوز الغلاف الأرضي نحو بعض الكواكب، وأمثال ذلك - أن تهب عاصفة من الرفض والتكذيب.

وقد قارن هذه الحالة المتجهمة للكشوف المعاصرة في الثلث الأخير من القرن العشرين انفتاح مجموعات من شباب المجتمع على الفكر المعاصر عبر الابتعاث والتواصل الإعلامي، فانعكس ذلك التجهم على كثير منهم سوء ظن بما

يمثله طلبة العلم هؤلاء من دين، ونفورًا من الالتزام به باعتباره نموذجًا لتكلس الفكر والانقطاع عن الحياة بتدفقها المعاصر.

ما يجري في حالنا الراهن من بعض الذين ينتسبون للعلم الشرعي في الموقف من معطيات الفكر المعاصر لا في المجالات التقنية، والفلكية - كما كان قبل خمسين عامًا - وإنما في جوانب الحياة الاجتماعية في السياسة، والاقتصاد، والإدارة ونحوها، سواء من حيث الرفض المطلق، أو التشكيك بمن يدعو لاستثمار ما يراه إيجابيًا منها - هو مع الأسف تصديق لتلك المقولة الهيجلية بأننا نعيد اتخاذ المواقف التي ثبت فشلها.

ليس معنى هذا أن الجميع مطبقون على هذا الموقف، كلا، إن هناك فئة أخرى تقدم رؤى ناضجة للموقف الرشيد من هذه المعطيات تحليلاً، ونقدًا لها، واستثمارًا لإيجابياتها بعد صياغتها وفق القيم الإسلامية في المجتمع؛ لكن الذي لا ريب فيه أن لصوت الرفض لتلك المعطيات، والتشكيك في مقاصد من يبغي التفاعل معها دويّه المتسم بالحدية، والاستثارة الشعبية، تمامًا كما كان الأمر قبل خمسة عقود مع المواقف الأولى التي وجد إبانها أصحاب رؤى ناضجة أثبتت الأيام سدادها وصوابها، وإن كانت في وقتها قد شُكك فيها، وحوربت ومُنع تداول بعض كتبها.

هذا الأمر يقتضينا - نحن أبناءَ هذا الآونة الحاسمة من تاريخ أمتنا الحرج أمام المستجدات التي ما تزال تنهال عليها - أن نأخذ مما جرى قبل تلك العقود "عبرة، ودرسًا تاريخيًا" نعدل في ضوئه مواقفنا إزاء مستجدات عصرنا وفق المسلك الرشيد.

لإبراز هذا الأمر بما يؤهله لاستيعاب العبرة التاريخية؛ سأشير إلى عالم شرعي من علماء المملكة العربية السعودية في تلك الفترة، ومن داخل التيار السلفي، قدَّم هذا العالم أفكارًا منهجية سديدة للتعامل مع المستجدات المعاصرة أثبتت الأيام صحتها وخطأ الأفكار المقابلة لها التي أدى رواجها إلى منع بعض كتب هذا العالم على الرغم من أحقية ما تحمله، هذا العالم هو الشيخ (عبدالعزيز بن خلف آل خلف). قرأ على الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة العربية السعودية في وقته، وعلى الشيخ عبدالله بن سليمان ابن بليهد، وغيرهم، وتولى رئاسة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ في الجوف، وأشرف على المدارس أول ما فتحت في الجوف أيضًا، ثم تولى القضاء في النصف الثاني من القرن العشرين في حقل والقريات وسكاكا. ألّف عددًا من الكتب بعضها في دراسات فقهية، وبعضها الآخر فيما نحن بصدده، وهو موقف المسلم من الإنجاز الإنساني في مجالات الحياة، ومن أبرز ما كتبه في هذا المجال: كتاب "العبر في نتائج القضاء، والقدر"، وكتاب "دليل المستفيد على كل مستحدث جديد" في جزأين، ألفه في مطلع الستينات الميلادية/ الثمانينات الهجرية، وكتاب "الأجزاء الكونية بين العقل، والنقل"، وكتاب "آفاق الهداية" في سبعة أجزاء. في عام ١٣٨٥هـ تفرغ للبحث والتأليف في المدينة المنورة حيث توفي في العقد الأول من هذا القرن الخامس عشر الهجري، رحمه الله.

كان الشيخ متواصلاً مع العلماء خارج المجتمع السعودي، ومع الصحف، والمجلات، وقد أثنى عليه وعلى مؤلفاته علماء

كبار، مثل: شيخ الأزهر في وقته الشيخ محمد الفحام، وشيخ الأزهر بعد ذلك الشيخ عبدالحليم محمود، والعالم الشيخ علي الهندي، الذي كان أستاذًا في كلية الشريعة بمكة المكرمة الذي قال عن الشيخ عبدالعزيز الخلف: "إن كتابه - دليل المستفيد - الذي يمثل نبراسًا ينير للقارئ الطريق ويهديه السبيل يدل على أنه قد بقي من فحول الرجال أهل الفكر الثاقب، والنظر الصائب بقايا"(١).

وكان شيخنا متفاعلاً مع عصره متأملاً في تحولاته بعقل المؤمن الناقد، لا في الجوانب التقنية والفلكية التي كانت إشكالية ذلك الوقت في تعامل الفكر الإسلامي معها - والتي سأركز عليها في الدراسة - فقط وإنما في المجال الإنساني الاجتماعي أيضًا، من ذلك مثلاً حديثه عن (العدالة الاجتماعية) التي يرى أنها عنصر أساس للنهوض الحضاري، وأنها من الإسلام، وأن من الانتكاس المشهود أن يتمثلها غير المسلمين بينما يتخلى عنها المسلمون؛ مما أسقطهم حضاريًا.

ومن دلائل تفاعله مع الواقع مما ندخل منه لتناول بعض أفكار الشيخ في المجال الذي حددناه أن تأليفه كتابه "دليل المستفيد على كل مستحدث جديد" كان نتيجة حوار بينه وبين بعض المفكرين المبهورين بمبتكرات الفكر الغربي في القرن العشرين، ومنجزاته التقنية، والفضائية، وتصورهم أنها تعبر عن مرحلة حضارية تجاوز فيها العقل البشري الدين الذي

---

(١) دليل المستفيد على كل مستحدث جديد، ص (ل).

يمثل نقيضًا لهذه المنجزات(٢)، حيث كشف لهم الشيخ أن المفترض أن تزيد هذه التطورات إيمان الإنسان بربه، وقربه من دينه الحق وهو الإسلام الذي لا يحارب هذه المنجزات بل يدعو لاستثمارها في صالح الإنسانية، مما جعلهم يطلبون منه الكتابة الموسعة في هذا المجال، فأخرج كتاب "دليل المستفيد على كل مستحدث جديد"، الذي طبع في مستهل ثمانينات القرن الرابع عشر الهجري/ ستينات القرن العشرين الميلادي.

يبدأ الشيخ عبدالعزيز الخلف بمقدمة يؤسس فيها للنظرة الإسلامية بشأن موقف الإنسان تجاه الكون وحركته فيه، ومما ذكره في ذلك أن الاختراع والاكتشافات التي يقوم بها الإنسان داخلة ضمن الوظيفة المنوطة بالإنسان في هذه الأرض، أي هي من الخلافة فيها، وأن التطور في حياة الإنسان الاجتماعية فضلاً عن التقنية متواصل عبر القرون لا يمكن إيقافه أو تصور انتهائه، ثم رفض تجاوز سقف معين فيه.

ثم بين أن الإبداع والتطور الحضاري إنساني لكل البشر نتيجة ما أوتوا من مواهب، إذا فتح لها المجال آتت ثمراتها، وليس محصورًا بجنس ولا بدين: "التمسك بالحقيقة، هي أن الإسلام، والكفر، أو بلفظ أعم جميع الأديان السماوية، والملل المتبعة في كل زمان، ومكان ليس لشيء منها ميزة في المواهب

---

(٢) هل يقصد الشيخ أنهم يتبنون الفلسفة الوضعية عند أوجست كونت القائلة بالمراحل الثلاث؛ طفولة البشرية "المرحلة الدينية"، ومراهقتها "المرحلة الميتافيزيقية"، ونضجها "المرحلة العلمية التجريبية"؟ ربما، وربما كانت الفكرة السائدة بتأثير الرؤية الماركسية التي تقول بأن تكثف العلم المادي يؤدي إلى انحسار الفكر الغيبي.

الأصلية بإيجاد تلك المخترعات الحديثة والقديمة، بل إن الله تعالى حكيم يؤتي الحكمة من شاء من خلقه لتنفيذ ما يشاء لخلقه، وهذه الحكمة يؤتيها الله تبارك وتعالى المسلم والكافر والمتدين وغير المتدين، متى شاء من فرد موهوب، أو جماعة موهوبة"(٣).

وعالج قضية التميز البشري في صناعته للحضارة وفي كرامته الإنسانية، من خلال الآية القرآنية: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ [الإسراء: ٧٠]، حيث ذكر أن التفضيل نوعان: عام لكل البشرية بحكم آدميتها بالعقل والمواهب الحساسة وحسن خلق الإنسان مقارنة بالكائنات المحيطة به، وخاص وهو التفضيل الروحي الحقيقي لمن استخدم عقله استخدامًا سليمًا فقام بعبوديته لخالقه على الوجه المشروع.

واستعرض مسيرة الأنبياء (عليهم السلام)، والصالحين وجهودهم في مجال الابتكار كتصنيع سفينة نوح، والمعدات الحربية لدى داود، وعمل السد من قبل ذي القرنين، ونحوهم، ليؤكد أن التدين وتحقيق العبودية لله لا ينافي الإسهام في الإنجازات المدنية التي يسميها "الابتكارات الاستمتاعية"، بل إن الدين يوجه أتباعه نحو المنافسة في ذلك لتحقيق الصعود الحضاري. وهو في ذلك يرد على فئتين متطرفتين: فئة من المتدينين الغلاة الرافضين لقبول أي منجز حضاري، وفئة من الملحدين الذين يرون أن الدين مرحلة غير

---

(٣) المرجع السابق، ص١٥.

حضارية ولا يمكن أن يتحقق النهوض المدني إلا إذا انحسر الدين من الحياة. وقد وجه رده على هذه الفئة عبر الإشارة إلى مؤلف كتاب "هذي هي الأغلال" عبدالله القصيمي.

وينتهي إلى أن "تلك المصنوعات، والمخترعات القديمة والحديثة، وكل ما من شأنه نفع البشرية، قليلاً كان، أو كثيرًا، مرغب فيه، مندوب إليه، ما لم يكن هذا المصنوع للإضرار بأحد من الناس ظلمًا، وعدوانًا، أو كل ذي كبد رطبة، لأنه لا يجوز الإضرار بالذرة فما فوقها عبثًا، فضلاً عن البشر"(٤).

ويقرر أنه "متى وجد بالمسلمين تأخر عن أداء الواجب الحيوي الذي هو عنوان بناء صرح الإسلام، فإنه قصور ذاتي يأثم المسلمون عامة بتركه وينالون بهذا الترك الخيبة والندامة، ومن يهن الله فما له من مكرم"(٥).

ويتحدث عن سبب تخلف الدول العربية والإسلامية في الميدان التقني نافيًا أن يكون السبب طبيعة الإنسان العربي ذاته، أو دين الإسلام، مقررًا بحسم الواثق: "إنني أقول بيقين: إنه لا يمكن بحال من الأحوال لأية دولة في عالم الوجود، كثرت تلك الدولة، أم قلت، أن تكون مبتكرة منتجة صناعية إلا بخمسة شروط:

١ - أن تستكمل حريتها.

٢ - أن تتوفر اقتصادياتها.

٣ - أن تصح أبدانها.

---

(٤) المرجع السابق، ص٤٤.

(٥) المرجع السابق، ص٦٢.

٤ - أن تقوم على العدالة الاجتماعية.

٥ - أن تطول مدتها على تلك الصور الحسية، وإلا فلا"(٦).

كان الشيخ واعيًا - وهو يتناول قضية المنجز الحضاري الذي انفتح عليه المجتمع السعودي - أنه يتحدث في جو مضطرب تشحنه كتابات منكرة لبعض فتوحات العلم، خاصة في الفلك والفضاء؛ ولهذا توحي عباراته أنه يتحدث بحذر من أن يساء فهمه في هذا المجتمع الذي انزعج بعض أفراده من الانفتاح غير المعتاد، لكن الشيخ - والحق يقال - كان جريئًا في تحديده صور الخلل الذهني لبعض طلبة العلم، وخطورة نتائج هذا الخلل. وقد حاول تفسير وقوع هذا الخلل المعرفي عبر صياغة لفلسفة العلاقة بين العقل، والقلب - كما سماها - أي بين الفكر والعاطفة، إذا أردنا تقريبها أكثر. فما هذه الفلسفة؟

خلاصة هذه الفلسفة التي أوردها الشيخ عبدالعزيز في مقدمته التمهيدية لكتاب "الأجزاء الكونية بين العقل والنقل"، وقد فصلها في كتابه "العبر في نتائج القضاء والقدر" ما يأتي:

- الفكر الصحيح هو ما كان متسقًا مع هدي الإسلام، فصاحبه ذو "عقل سليم"، سواء كان مسلمًا، أو كافرًا، فالحكم على العقل من خلال أفكاره التي يقدمها لا من خلال شخصية صاحبه تدينًا، وصلاحًا، وهكذا كل من قدم حقًا، وعدلاً في المجال الفكري فهو "ذو عقل سليم

---

(٦) الأجزاء الكونية بين العقل والنقل، ط١، دار البيان، دمشق، ١٣٨٩هـ، ص٣٣.

بصرف النظر عن دينه وقصده، وهذا الباب يشترك فيه المسلم والكافر، والناس جميعًا"(٧).

وهو بهذا يحاول علاج نظرة خاطئة لدى بعض طلاب العلم والعامة، وهي تصور أن كفر الكافر يقضي بأن كل ما يقدمه من آراء، ونظريات، ونظم باطل لكونه كافرًا، وأنه لا يمكن أن يصل الكفار إلى شيء من العلوم التي جاء بها القرآن؛ لأن القرآن "فوق مستوى العقول البشرية، فإما أن يستمد منه الإنسان، وهنا يكون فقط حقًا، وإما أن يستمد من غيره فيكون باطلاً"، وقد بين الشيخ أن ذلك "خطأ في منطوقه، ومفهومه"(٨).

- أما القلب السليم؛ فهو القلب المؤمن بالله تعالى؛ فالإنسان المؤمن الموحد صاحب قلب سليم.
- والعالم المسلم الفقيه حقًا في الدين هو الذي يكون جامعًا بين العقل السليم، والقلب السليم.
- فإذا خرج العقل عن نطاق الحق، والعدل الذي جاء به الإسلام لم يعد عقلاً سليمًا أيًا كان صاحبه، "حيث خرج عن مقتضى العقل السليم، ويستوي في ذلك المسلم والكافر"(٩). بمعنى أنه لإيمانه يحكم بسلامة قلبه؛ لكنه لخروجه عن منطق الحقيقة ومجافاته للصواب في المجال المعرفي يكون ناقص العقل، أو سقيمه.

---

(٧) المرجع السابق، ص٣٤.

(٨) المرجع السابق، ص٣٤.

(٩) المرجع السابق، ص٣٥.

- أما إذا خالف المسلم أمر دينه في قضايا الإيمان، والتعبد فإنه ينتفي عنه القلب السليم بقدر ما خالف.

وبالمقابل فإن غير المسلم إذا عمل بشيء من أخلاق الإسلام "بأي صورة من الصور التي دفعته إلى عمله ذلك فإنه يثاب على فعل المأمورات في الدنيا"(١٠).

فالقمة إذن هي في الجمع بين العقل السليم، والقلب السليم في معانيهما الصحيحة، والجامعون بينهما أفضل الناس.

ثم يتهدّى شيئًا فشيئًا إلى هدفه فيقول: "إن زيادة العقل السليم على مادة القلب السليم تكون صلاحًا للمرء في مقاصد الدين والدنيا، لأن العقل هو الذي ينير الطريق أمامه في كل آفاق الحياة... أما إذا نقصت مادة العقل السليم وزادت فيه مادة القلب السليم فهذا غالبًا يكون به المرء موضع ارتباك في فهمه للأمور على حقيقتها، وربما زادت الغفلة في تصرفاته.. بل ربما كفر من حيث لا يشعر بناء على نقص التركيب في مادة عقله، وتفكيره، وما هو إلا لنقص فهمه للمقاصد الشرعية التي قد تأتي بالمنطوق، وقد تأتي بالمفهوم، وقد تأتي بالقياس. وعلى هذا فإن القلب السليم شيء، والعقل السليم شيء آخر، والحفظ للنصوص الشرعية شيء، والفهم لمقاصد التشريع شيء آخر، والمحدِّث شيء، والفقيه شيء آخر"(١١).

ثم يقرر نتيجة لبعض ما ذكر: "فالحكمة الربانية قد قضت بأن المسلم، والكافر قد يكون فيهما من نتائج العقل السليم

---

(١٠) المرجع السابق، ص٣٦.

(١١) المرجع السابق، ص٣٦-٣٧.

والتفكير الصحيح ما يكون موافقًا لمقتضيات النصوص الشرعية مما يحبه الله ويرضاه، والحق أن هذه الصورة ليست وقفًا على المسلم لإسلامه؛ ولكنها من خصائص الجنس البشري"(١٢).

بعد هذا التقرير النظري ينزل بحذر إلى ميدان الواقع، الواقع الغربي بمنجزاته الحضارية، والواقع الإسلامي ولا سيما في مجتمعه.

عند الغرب يلتقي مع الشيخ محمد عبده في قولته الشهيرة: "وجدت في الغرب إسلامًا بلا مسلمين ورجعت إلى الشرق فوجدت مسلمين بلا إسلام"، فيقول الشيخ الخلف: "إذا أردنا أن ننطق بأسلوب الإنصاف. والاعتراف، فإن الواقع يثبت بأن كثيرًا من المجتمعات الراقية في بلاد الإفرنج والتجمعات الدهرية قد أخذت بآداب الشريعة الإسلامية، بينما نجد كثيرًا من المسلمين قد نبذوا كثيرًا منها في جميع أمورهم، ومقتضيات دينهم، وإسلامهم"(١٣).

وكما كان للمسلمين تقدم معرفي وتقني أيام نهوضهم الحضاري الذي تراجع، فإن البديل الذي اختاره الله للقياد الحضاري، والتطور التقني هم "الأوربيون ونحوهم الذين اختارهم الله لتلك المخترعات، والمصنوعات، لأنهم أبرد طباعًا، وأصبر على العمل، وأقوى مثابرة لتطوير الدقائق من البداية إلى النهاية، دون يأس، أو ملل، وذلك من قواعد الاختراع، والإنتاج"(١٤).

---

(١٢) المرجع السابق، ص٣٩.

(١٣) المرجع السابق، ص٤٠.

(١٤) آفاق الهداية، عبدالعزيز خلف الخلف، ط١، دار الفكر العربي، ١٤٠٣هـ، ١/١٩٦.

ولا ينبغي أن يذهب الذهن بعيدًا فيتصور أن الشيخ عبدالعزيز يرى خاصية للجنس الأوروبي في الفكر على غيره كما يدعيه العنصريون الأوربيون، كلا، إنه بصدد تأهيل عقول بعض طلاب العلم من جيله لتقبل أن يقال الحق على لسان الآخر الكافر، وأن يقدم خدمة نافعة للبشرية، وأن يسبق الكسالى المتخلفين في مجال عمران الأرض واستثمار خيراتها، وأن يجد، ويجتهد لما يصلح أوضاع الناس؛ يقول: "إن العلوم الجديدة - في الحضارة المعاصرة - لم تظهر في أهلها عفوًا، ولا من باب الخرص والتخمين، أو الرموز المجهولة، أو بلا مسببات ملموسة يندى لها جبين أقوى الرجال من ذوي الأحلام، والعقول الفذة في بني الإنسان، لأن أولئك المخترعين وأقطاب العلم الحديث من نوادر الرجال في المجتمعات الإنسانية، والله عز وجل يمدهم بالعناية، والإرادة، والقصد منه لمد هذا الوجود الإنساني بمنافع لا حدود لها من نتائج العلم"، وعلماء العلم الحديث "معلوماتهم تنبني على الأمور الحسية، والسمعية التي تقبلها العقول البشرية، ولا تخالف في الغالب النصوص الشرعية"(١٥)، أما نحن - المسلمين - وفي مجتمع الجزيرة العربية بالذات - فـ "... كثيرًا ما نجد أناسًا من أهل الدين، والصلاح، وأصحاب القلوب السليمة عقولهم منزوية على نفسها، وليس لها امتداد، ولا مجال، ويحبون تعليم الناس الخير، غير أنهم في حاجة ماسة لما فقدوه من تلك المادة ليستنبطوا الحق من مواضعه،

---

(١٥) الأجزاء الكونية، ص٤٨، ٤٩.

ويضعوه في مواضعه، وإذا كانت قلوبهم سليمة فربما تدفعهم إلى اليقين القطعي بأن كل شيء في الوجود من هذا الكون الواسع في الأرض والسماء خاضع لتفكيرهم، ومعلوماتهم؛ فنجدهم في هذا الزمان، الذي تفجرت فيه خفايا كونية لا حدود لها، يضعون المحسوسات في باب المعدومات حينما يكون المحسوس غير خاضع لفهمهم، وإدراكهم"(١٦).

لعلنا هنا نستعيد موقف ابن تيمية من بعض علماء الكلام المسلمين الذين شوهوا الإسلام بمواقفهم الرافضة لبعض العلوم الطبيعية، والرياضية الصحيحة لأصلها اليوناني، ووصف موقفهم هذا بأنه بدعة: "ومن بدعهم - بعض علماء الكلام المسلمين - ردهم ما صح من الفلسفة في علم الفلك والحساب ونحوه"(١٧).

والشيخ الخلف لا يعتب هنا على العامة إذا أنكروا غرائب المستجدات عليهم، وإنما يعتب على أهل العلم الذين انجرفوا مع العامة، فلم يكن لعلمهم أثر في قبول الحقائق، ولم يتوقفوا عند عدم التبين: "إن الاستغراب يأتي من استنكار العلماء، لأنه لا يجوز لهم أن يستنكروا شيئًا من المحسوسات أو المعنويات كونية، أو غير كونية إلا بأدلة شرعية يعلمون أنها الحق الذي لا يحتمل التأويل، أما ما يحتمل التأويل، أو ما هو

---

(١٦) المرجع السابق، ص٤٠-٤١.

(١٧) الرد على المنطقيين، ابن تيمية، ط٢، لاهور، ١٣٩٦هـ، ص٢٦٠. والفكرة نفسها لدى ابن القيم في مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ٢/٢١٢.

من الممكنات فيجب على العالم التورع من الانخراط في مواقف الإنكار بلا استثناء"(١٨).

ويعود لقضية العقل والقلب التي يبدئ فيها ويعيد ليؤكد لكثير من طلبة العلم حوله أن تقواهم وتدينهم لا يعني أنهم على الحق في كل رأي، وفكرة، وأن فاقد التدين لا يعني أنه أفلس من الحقيقة تمامًا، ما يعني ضرورة التواضع والتعرف إلى ما لدى الآخرين حتى لو كانوا كفارًا، والاعتراف بالحق وقبوله، ولو من غير المسلمين، ويعني من جهة أخرى ألا يطلق الإنسان لسانه بالتحليل والتحريم، والحكم بالحق، والبطلان، لمجرد كونه تقيًا متدينًا، وأن ذلك يعني سلامة كل ما يقوله ويراه: "إن من حرم العقل السليم ودفعه قلبه السليم وانتصب إلى الفتيا والتحليل والتحريم معتمدًا على ما يحفظه من النصوص الشرعية، سواء نصب نفسه، أو انتصب بدافع اجتماعي، أو حكومي، أو مادي؛ فإن وقوع المتناقضات في نتائج أقواله، وأفعاله أكثر من الإيجابية، وبقدر ما حرم من مميزات التفكير السليم تظهر الفجوات، وربما أخذه الغرور، أو الغفلة إلى فساد كبير لا تحمد عقباه"(١٩).

ويصل إلى نقطة ربما تبدو إلى اليوم مجال منازعة لدى كثير من أهل الدعوة، والعلم، لكنه يقدمها بثقة العالم الواعي بما يقول؛ فسلامة القلب - التي تعني إيمانه، وصلاحه - نفعها لصاحبها وحده، وبالذات في آخرته.. "أما ما يحتاج

---

(١٨) المرجع السابق، ص٤٣.

(١٩) المرجع السابق، ص٤٧.

إليه الناس من التوجيه والإرشاد، والأحكام العامة والخاصة، فإنها تفتقر إلى العقل أكثر من افتقارها إلى بعض النصوص الشرعية، كما أنها تفتقر أيضًا إلى العقل أكثر من افتقارها إلى صلاح القلب، وسلامته.. لأنها أمور متعدية في مجموعها، والناس تقف غاياتهم وأهدافهم على ظواهر الناس لا على بواطنها صلاحًا، أو فسادًا..

إذا تبين هذا فإن من المضار الملموسة على بعض من يطغى قلبُه السليم على عقلِه ومداركِ التفكير السليم لديه، أن يخوض في بعض المستجدات المستحدثة"(٢٠)، دون علم أو هدى مبين.

لكن ما سبب التحجر العقلي، والتعصب الملتحف بالدين ضد مستجدات الأفكار؟

ذكر الشيخ عددًا من أسباب ذلك، منها:

- عدم التفريق بين التراث المأثور عن السابقين - بما فيهم السلف - والوحي، ما جعل تأويلاتهم تصبح قطعيات لا يمكن تجاوزها، حتى ولو ثبت واقعًا محسوسًا بطلانها. وهذا خطأ، فالصحيح كما يقرر الشيخ عبدالعزيز أنه "إذا كان التأويل في أقوال علماء السلف مخالفًا للمحسوس فلا يلتفت إلى تأويل يخالف المحسوسات.."(٢١).
- محدودية الاطلاع، والانغلاق في دائرة جغرافية ضيقة، فلا ريب أن "من طاف في أرجاء الأرض، ورأى بعينيه ما

---

(٢٠) المرجع السابق، ص٤٧، ٤٨.

(٢١) المرجع السابق، ص٥٢.

في الوجود على هذه الأرض المترامية الأطراف، ولمس ذلك بيده فإنه أعلم بذلك ممن لم يفارق قريته في الصحارى القاحلة"(٢٢). ولمحدودية اطلاعه ضاق فكره تبعًا لذلك، "فأما محسوساته فهي لا تبعد عن خطوات أقدامه غالبًا. وأما تفكيره فمتى كانت نتائجه محدودة تنتهي إلى ما بدأت منه، وهذا موقف من أقعده القصور في المواهب"(٢٣).

- عدم الاطلاع على العلوم الحديثة ومتابعة تطوراتها، فإنهم "لم يمارسوا العلوم الحديثة ولم يلمسوا أشياء من حياة الشعوب ومصادر الاختراع، وإنما حملوا قلوبًا سليمة قد امتدت مفاهيمها إلى حدود تقطع لنفسها بأن ما يكون في الكون خاضع لسابقه في حدود المعلومات التي توصلوا إليها"(٢٤).
- عدم تقبل النقد بفكر يطلب الحقيقة ويفترض وقوعه في الخطأ، "وأي امرئ يستنكف من التحاقه في مواقف الجزر والمد في نتائج المواهب عندما تبرز مرئياته لعالم النقد فإنه بذلك متحجر... لا يفهم المعنى من قول أحد العلماء: "كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ"(٢٥).

من القضايا التي عالجها أيضًا قضية التأويل الذي يتسلح به في بيان منهج الإسلام في البناء الإنساني الحضاري وفي دعم التطور المدني، وكانت المشكلة لديه مع تلك الفئة من

---

(٢٢) المرجع السابق، ص٥٨.

(٢٣) الأجزاء الكونية بين العقل والنقل، ص٧٤.

(٢٤) المرجع السابق، ص٦٠.

(٢٥) المرجع السابق، ص٦٢. والقول للإمام مالك بن أنس - رحمه الله -.

المسلمين الذين انكمشت حياتهم وضاقت آفاق تفكيرهم، وزادوا على ذلك بأن ضيقوا الإسلام نفسه، فخنقوه في مقاسات أفكارهم المحدودة، ووضعوا على القرآن سورًا يمنع استفادة الخلق منه في دنياهم بحجة حمايته، فالقرآن لديهم "دليل على الأعمال الأخروية فقط، أو على الأعمال الدنيوية فقط، ومحصور بمعنى واحد، أو معان محدودة بغير نص صريح على هذا الادعاء، بل يقولون إن القرآن قد انتهى تفسيره وإيضاح معانيه ومقاصده. ويقول معقبًا : "إن من يقول ذلك قد كذب وافترى وزور على الله، وعلى رسوله، وعلى المفسرين"(٢٦).

ويؤكد في مقابل هذه الادعاءات قابلية القرآن للتأويل على مر الزمن: "فتأويل القرآن يهبه الله من يشاء من خلقه من بعد الرسول ﷺ، وهو محتمل في كل زمان ومكان، محدود ذلك بما يناله الفرد من عباد الله من إلهام الله له شيئًا من النور والحكمة، سواء كان هذا الفرد من السلف، أو الخلف، ولولا ذلك لما كان القرآن العزيز دستور البشرية إلى يوم القيامة، يتمشى مع كل "تطو،ر وتغير، وإقبال، وإدبار، ومع كل تقلبات الآفاق، والأزمان، وهذا شيء لا ينكره أي فرد ذي عقل سليم"(٢٧).

وإذا كان التأويل مرتبطًا بالزمن الذي هو متطور متراكم معرفيًا، وحضاريًا، فإن المسألة ليست مجرد إمكانية للتأويل لدى المتأخرين، بل قد يصل هؤلاء من تأويلهم إلى ما لم يصل

---

(٢٦) دليل المستفيد على كل مستحدث جديد، ص٧١.

(٢٧) المرجع السابق، ص٧٧.

إليه السابقون: "قد يأتي زمان يستدل فيه بشيء من القرآن والسنة بمنطوقها، أو بمفهومها على حقيقة ملموسة قد حدثت لم تخطر من قبل على قلب بشر من سلف الأمة، ثم يطبق هذا السامع، بل ويعي تأويلاً صحيحًا لم يعه الصحابة والتابعون لهم من علماء السلف"(٢٨).

كما نعلم أن السلف من خلال استقرائهم للنصوص الشرعية، ذكروا أن للتأويل معنيين:

- التفسير والبيان للمعاني.
- حقيقة الشيء العينية.

وقد دمجهما معًا في دراسته التي يريد أن يربط فيها بعض الكشوفات المعاصرة بالنصوص الشرعية، فبين أن التأويل هو استنباط البشر لتطبيق معاني القرآن على (الحوادث)؛ وهو يعني أن من مهمة العالم المسلم أن يمارس "التأويل والاستنباط واستخراج الأدلة من آيات الله البينات على كل حادث ومستحدث في هذا الكون إلى يوم القيامة، وعلى كل ما كان، أو يكون، وكل وسيلة، وغاية، وكل محسوس، ومعنوي مطلقًا"(٢٩). على أنه لا يمنع وجود تأويلين مختلفين، أو أكثر يصلحان معًا، ولا يلزم من صحة أحدهما خطأ الآخر، ففي سورة الزلزلة أخبر سبحانه أن الأرض تخرج ما فيها ويكون مثار عجب الناس، وأن الأرض تتحدث عن أخبارها ... إلخ. فمثل هذه السورة لا مانع - كما يرى - أن

---

(٢٨) المرجع السابق، ص٨٢.

(٢٩) المرجع السابق، ص٧٢.

تؤول بأن ذلك يوم القيامة، حيث تخرج كنوزها التي لم تكتشف، ويتعجب من ذلك الناس الذين عاشوا فوقها ولم يعرفوا هذه الدفائن، وأنها تخبر بما عمل فوقها، وقد جاء ذلك عن السلف كثيرًا، كما يمكن تأويلها كما ذكر بعض السلف بأنه في الدنيا ويتصور الآن خلال ما هو جار وسيجري من تطورات عملية، فاستخراج الطاقة والثروات الأرضية حدث الآن بصورة مدهشة للناس، أما تحديثها بأخبارها فها هي وسائل الإعلام والاتصال تنقل أخبار الأرض إلى كل أهل الأرض في الحال.

في الجانب التطبيقي لكتابه "دليل المستفيد" استعرض بعض المنجزات الحضارية في المجال التقني، لا بصفتها أمورًا مقبولة في الدين وإنما بصفتها معجزات دالة على صدق الإسلام في التصورات التي أعطاها للمسلمين عن مستقبل الزمان، تلك التصورات التي استقبلها المسلمون الأولون بتسليم وتفويض لحقائقها؛ لأنها بعيدة التصور في الوضع الفكري، والحضاري الذي كانوا فيه:

الدجال - مثلاً - الذي يسابق الشمس ويسبقها، ويمس السحاب بيمينه، ويأمر الأرض فتخرج له كنوزها وتتبعه معداته كيعاسيب النحل... إلخ.

ويأجوج ومأجوج في كثرتهم الهائلة، وفي جفاف بحيرة طبرية، وفي قذفهم أسلحتهم إلى السماء...إلخ. أما الذين جاءوا بعد عهد الصحابة، وتابعيهم فهم فريقان في التعامل مع هذه التصورات: فريق أنكر كثيرًا منها لعدم معقوليتها كما يتصور، أو على الأقل همشها. وفريق اندفع إلى الطرف

الآخر فأضاف إليها من تخيلاته في توصيفات الدجال ويأجوج ومأجوج في صغرهم حتى كأنهم أصغر من الحشرات، حيث يطلون على العلب الصغيرة فيحسبونها آبارًا عميقة وفي طول آذانهم التي يفترشونها، ويلتحفونها.

بين هذين الموقفين تناول الشيخ - بمنطق إيماني عقلاني نصي واقعي - هذه القضايا ملتزمًا بالنصوص الشرعية، مؤولاً إياها في ضوء ما وصلت إليه حضارة البشر، فما سيمارسه الدجال لو ظهر في ظل وضعنا الحضاري لن يبدو غريبًا على الناس، فالمسافر بالطائرة يلامس السحاب، والطائرات إذا تتابعت كيعاسيب النحل تمامًا، والقدرات الجيولوجية اليوم وما ستتطور إليه تستطيع اكتشاف كثير من المخزونات الأرضية، والصناعة الإعلامية الرهيبة مهيأة لأن يستتبع بها ملايين البشر... إلخ.

فالمعجزة ليست في أن ممارسات الدجال ستكون خارقة - كلها - للمعتاد في حياة الناس في زمنه، إن المعجزة في إخبار الرسول ﷺ بهذه الأحداث ثم وقوعها كما أخبر عليه السلام.

أما يأجوج ومأجوج فهم أمتان كبيرتان من نسل يافث بن نوح من جهات الشرق أساسًا، وينكر تلك الصورة التي يراها خرافية عنهم "كزعم من زعم أنهم بصورة بشعة، أو أنهم من غير ولد آدم، أو أنهم محجوبون عنا، أو أنهم في قسم ما من الأرض لا يعلم حالهم إلى الآن، وغير ذلك من الأقاويل المضحكة التي لا يقبلها إلا عقل منبوذ محدود"(٣٠).

---

(٣٠) المرجع السابق، ص١١٨.

يرى الشيخ أنهم بشر عاديون، وأن السد منهار منذ قرون، وأن موجة التتار التي اكتسحت كثيرًا من الممالك، والبلاد الإسلامية وغيرها من القرن السابع الهجري واحدة من موجات اندفاعهم التي ستكون آخرها قبل قيام الساعة، وأنهم يكونون متمكنين من القدرات العسكرية الهائلة، وأنهم يهبطون من العلو بسرعة فائقة حيث قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] والحدب المرتفع، والنسلان الانحدار السريع.

ومن اللفتات العجيبة للشيخ (رحمه الله) أنه توقع أن يهبط الإنسان على القمر، وعلى كواكب أخرى، في وقت لم يهبط فيه الإنسان على القمر، حيث ألف الكتاب في مطلع الستينات الميلادية للقرن العشرين، كما توقع من خلال قوله سبحانه: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ومما جاء في الحديث أن يأجوج ومأجوج يرمون بنشابهم إلى السماء فيرجع مخضوبًا دمًا، توقع أن تبنى قواعد عسكرية في بعض الكواكب، وأن تقوم حروب فضائية، وهو مما توجهت إليه بعض القوى بعد ثلاثين سنة من هذا التوقع. يقول: إنه بناء على القدرات العلمية في تصنيع الوسائل وفي اختبارات الفضاء الواسع "فإنه من المحتمل أنهم سيصلون إلى بعض هذه الأجرام السماوية في يوم من الأيام، وقد يتطور الأمر بهم حتى يضعوا قواعد في الفضاء لقذف بعضهم بعضًا بالصواريخ والقنابل المحرقة الذرية"(٣١).

---

(٣١) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

وقد تناول المؤلف مجموعة من النصوص المخبرة عن آخر الزمان ومدى صلتها بالواقع الحضاري اليوم أو بمعطيات العلم المعاصر؛ من ذلك الأحاديث التي جاءت في فيضان المال في أرض العرب، وعودة الجزيرة العربية مروجًا وأنهارًا، وتطاول الأعراب في البنيان، والاستغناء عن الخيل، والاهتمام بالأبقار...إلخ.

لقد شغل المؤلفَ ما جرى من اضطراب فكري - لدى مثقفي المسلمين من جهة، وبعض علمائهم الشرعيين من جهة أخرى - تجاه الكشوفات المعرفية والاختراعات التقنية، فصب فيها جهده الكبير ليقيم التوازن الفكري لدى الفئتين: فئة المفتونين بها لدرجة ازدراء دينهم، وفئة المستنكرين لها لدرجة التكذيب بأشياء أصبحت حقائق واقعية، وإسناد هذا التكذيب إلى الدين، لتنظر إليها هاتان الفئتان نظرة عقلانية إسلامية، بصفتها إنتاج مواهب بشرية يستوي فيها المسلم والكافر من جهة، وبصفتها نعمًا إلهية على الإنسان ينبغي أن يسبق إليها المسلم للمنافسة في إنتاجها وفي استثمارها وفق ما يرضي الله من جهة ثانية، وأن فيها من جهة ثالثة ما يمكن اتخاذه لتقوية الإيمان، وزيادة اليقين بأحقية الإسلام، وصدق وحيه، وهذه الجهة هي ما تطور بعد ذلك فيما يسمى الآن بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الذي له رواده وهيئته، ومجلته.

أقول: لقد شغل هذا الجانبُ هذا العالمَ الجليل عن الاهتمام بالجانب الآخر المهم بل الأهم بالنسبة لواقعنا الذي

نعيشه، وهو معطيات الحضارة الغربية، لا في المجال التقني، وإنما في المجال الإنساني، في المنجزات الاجتماعية في السياسة، والاقتصاد، ومناهج الفكر، والأدب، مع أنه من خلال بعض إشاراته العارضة كان متابعًا لشيء منها، ومدركًا للموقف الحضاري الإيجابي تجاهها، لا موقف الرفض المتخوف، أو موقف الاستلاب الانبهاري، وقد ذكرنا في البداية إعجابه بالعدالة الاجتماعية التي نهضت - كما يرى - بسببها دول الغرب، وتخلفت بسبب التخلي عنها الدول العربية، ويمكن أن أشير أيضًا باختصار إلى ما ذكره في تعليقه على قصة ذي القرنين، مثل:

- أن من السياسة، والعدالة الاجتماعية طواف ولي الأمر على جميع من تحت ولايته، سواء صغرت الولاية، أم كبرت، وسواء كان ولي الأمر ملكًا، أو أميرًا أو غير ذلك، للمنفعة الملموسة بذلك حتى يطلع عن كثب، ويرى بعينه، ويسمع بأذنه، ويعمل لصالح الأمة.
- وأنه ينبغي للرعية أن يرفعوا الشكاية إلى ولي الأمر، ويطلبوا منه أن يعمل بمصالحهم المادية والمعنوية، ويوضحوا له عند طلب المشاريع الاجتماعية وجهة النفع والضرر.
- وأن أي أمة في عالم الوجود لا تربطها المشورة، وأخذ الفكر من مظانه، ولا تعتمد إلا على الاستبداد، والفكر المحدود، فإنها لن تفلح أبدًا، وكلما كثر عدد أهل المشورة، والرأي أصبحت المصلحة أكثر، وأصح.

- وأن ولي الأمر من واجبه أن يسارع إلى إجابة طلب الرعية حينما تظهر الفائدة، والمصلحة العامة، لأن المصالح العامة أولى، إن كانت الصورة التي يراها ولي الأمر ممكنة ويتفق الرأي عليها.
- وأن بيت المال العام يكون رفدًا للجميع، ولمصالح الأمة عامة، ويكمل منه ما يعجز الناس عن إيجاده من مشاريعهم العامة والخاصة، وتحرم المحاباة به، أو بشيء منه، سواء لفرد، أو أفراد، أو بلد، أو بلدان، إلا بما تقتضيه المصلحة العامة لكيان الأمة ومجموعها(٣٢).

والآن ونحن نوفض إلى العقد الرابع من القرن الخامس عشر الهجري، الثاني من القرن الميلادي الحادي والعشرين نتساءل - من جهة - ماذا لو أن بعض طلاب العلم في وقته، أي منذ ما يقارب الخمسين عامًا، اهتدوا بمسلكه الفكري الرشيد؟ فتفاعلوا مع عصرهم بعقلية منفتحة نقدية، واستثمروا منجزاته بإيجابية، وربوا أتباعهم على هذه العقلية والانفتاح الواثق، كم كانوا سيوفرون على أنفسهم وعلى مجتمعهم، وعلى دولتهم التي عانت من المواقف الغوغائية تجاه عمليات التحديث التي كان لا بد لها من ممارستها وهي دولة تعيش في القرن الحادي والعشرين.

ثم نتساءل - من جهة ثانية - هل انتهت المواقف الرافضة للوافدات المتتابعة من الغرب، والأمم التي التحقت بركبه الحضاري لمجرد كونها وافدة من خارج البيئة المحلية؟

---

(٣٢) المرجع السابق، ص١٠٩-١١٤.

أما فيما يتعلق بالجوانب التقنية فلا ريب أن الأمر خف كثيرًا، ولا سيما أنهم يرون بقايا الرافضين لتلك المنجزات قد صاروا يتفاعلون معها، وإن كان لا يزال هناك فئات بالعقلية السابقة نفسها، وما المواقف الرافضة للفضائيات وشبكة الإنترنت بإطلاق - أول الأمر - ببعيدة عنا.

الإشكال الأكبر لدى فئة من الدعاة، وطلاب العلم الشرعي في مجتمعنا هي الآن مع المنجز الحضاري في المجال الاجتماعي، مع أخذ الدولة بالأنظمة المدنية، كأنظمة العمل، والضمان الاجتماعي، والتأمينات، والقضاء، ومع توقيع المملكة على اتفاقيات دولية وضعت من قبل غير المسلمين، حيث ترفضها هذه الفئة بحجة أن الشريعة وافية بكل ما يحتاجه المسلم، وبحجة أن هذا من التحاكم إلى غير شرع الله؛ وهذا يجعل بعضهم يصل إلى حد التكفير، كما لدى بعض منظري الفئة الضالة الواقعة في التطرف، والغلو التفجيري التدميري للبلد.

وكما كان خطأ موقف السابقين من المنجز التقني، فإن هذا الموقف خاطئ أيضًا؛ إذ إن من حق المسلم والدولة المسلمة في مجال الاجتماع، اقتصادًا، أو سياسة، أو إدارة، أو عسكرية، أو نحوها، أن تستفيد من تنظيمات الدول وخبراتها المتقدمة، فهذه المجالات لم تأت الشريعة فيها بصورة محددة لا يتجاوزها المسلم في حركته كالعبادات، صلاة، وصومًا، وحجًا... ونحوها، وإنما فتح المجال ليبدع فيها المسلمون ما يشاؤون من الصور وفق المستوى الحضاري الذي يعيشونه،

على أن تكون في إطار القيم الإسلامية عدلاً وعدم إضرار ووفاء، وألا تناقض مقاصد الإسلام الكلية، وقواعده العامة؛ ويستوي في ذلك أن يبدعه المسلمون من أنفسهم، أو أن يأخذوه من الأمم الأخرى.

وقد أدخل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنهُ كثيرًا من الأنظمة آخذًا إياها من الدولة الفارسية، كنظام الأعطيات، والجند، وغيرها.

أما الدخول في الاتفاقيات الدولية فحسبنا دليلاً على شرعيته حديث حلف الفضول الذي قال فيه الرسول ﷺ: "لو دعيت به في الإسلام لأجبت"(٣٣)، ومثله حديث الحديبية حين قال ﷺ: "لا تدعوني قريش إلى خطة تصل فيها الرحم وتحقن الدماء إلا أجبتهم عليها"(٣٤). المهم ألا يكون فيما يتبناه المجتمع المسلم ما يخالف الإسلام؛ وهذا ما التزمت به الدولة السعودية - بصفتها دولة تحكم بشريعة الإسلام - حيث كانت تتحفظ في كل اتفاقية على ما يخالف الإسلام فيها.

فهل يعتبر أولئك الرافضون لهذا التفاعل الحضاري - على المستوى الاجتماعي - بتاريخهم القريب؟ وهل يتبصرون في مواقفهم عبر فقه سديد لشريعة الإسلام في هذا المجال؟ حتى يكونوا على مستوى التمثيل الصادق لدينهم، والبر بمجتمعاتهم، وتوطين أنفسهم في حركتهم مع الناس التي لا ترفض مسيرة الناس جملة، ولكنها تستبين الحق

---

(٣٣) حديث صحيح كما قال الشيخ الألباني في هامش كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، ط٧، دار الكتب الحديثة بمصر، ١٩٧٦م، ص ٧٥.

(٣٤) حديث صحيح. انظر هامش فقه السيرة، ص٣٥١.

والباطل فيها؛ فتأخذ بما يأخذ به الناس ما دام حقًا، وتقف عن مجاراتهم مع الباطل التزامًا بحديث الرسول ﷺ الذي يمثل المعيار السديد في علاقة المسلم بالبشرية والثقافات من حوله: "لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت، وأن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا ألاّ تظلموا"(٣٥).

إن الشيخ عبدالعزيز الخلف - رحمه الله - يمثل من خلال موقفه الشرعي العقلاني المسلكَ السوي للعالم الشرعي والمثقف الإسلامي الملتزم الذي ينبغي له - في ظل التحولات الحضارية - ألاّ ينساق مع الغوغاء آسرًا نفسه في حدود سقوفهم المعرفية المحدودة، منجرفًا مع عواطفهم غير الواعية، بل يتخذ مواقفه المستقلة مستبصرًا الحقيقة والمصالح المشروعة، داعيًا الناس نحو تلك الحقائق والمصالح، فهذا هو سبيل الارتقاء بالمجتمعات، وهو وظيفة العالم والمثقف، بصفتهما رائدين للأمة في نهوضها وترقيها الحضاري.

---

(٣٥) حديث حسن. رواه الترمذي. انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين المبارك ابن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناووط، مكتبة الحلواني، ومطبعة الملاح، ١٣٨٩هـ، ١٠/٦٩٩.